نفسه يصبح شيئا : « سنبلة ذهبية » في حقل كوني مترع بالحبوب ، وهو سيشدو في « جوقة اللانهايـــة » لان قلبه امتزج بالطبيعة ويتساقط عليه الندى . ان الهروب الى الطبيعة ، الى جانب انه هروب من الذات التاريخية المحددة ، هو أيضا هروب من العقل ومن التاريخ بل ومن الوعي سواء كان يهوديا ام انسانيا . يقول الشاعر في سلسلـــة أخرى من السوناتات تسمى « عن الدم » :

من الفخ الى الهاوية ، ومن الظلال الى الظلام نسقط ، مثل بقايا نيران خامدة .
نبارك بدنس لنستمد الوحي وبخفة نقني على العقل ... ذلك الضوء الزائف .
الذي ينيم ارواحنا حتى تنسى آلامها ينيمها بالفرح المترع ، وبموسيقى القيثار ،
وبالحدود والقواعد والقوانين نصل الى نظريات متحضرة ، معقدة ولا حياة فيها .
فلنكن مثل الاطفال الصغار مرة اخرى
مثل قطرة في الفيضان ، أو تنهدات المروج ،
لا بحث ، ولا هدف ، ولا قاعدة ، ولا طغيان ،
مثلما كنا في الايام القديمة ، قبل ان نتحكم
في الارض والضياء ، قبل ان نصيب الحكمة ،
وقبل ان يرهقنا الانبياء .

ان العودة للطبيعة هي عودة للبراءة المطلقة ، براءة تجعل من الانسان طفلا ، بل قطرة في اللانهاية السائلة ، لا تمارس اي احساس بالذنب او بالتاريخ ولا تشعر بأي حدود .

تشرنحوفسكي اليهودي القبلي

ولكن ثمة نبرة يهوديـــة متميزة في شعر تشرنحوفسكي تختلف اختلافـــا بينا عن النبرة المتمردة « العلمانية » الوثنية ، ففي قصيدة « في احلامي » نجد انه يستخدم الاشكـــال الشعرية العبرية القديمة ، فالقصيدة هي اساسا نواح من أجل العودة الى صهيون ، وهذا موضوع تقليدي كتب عنه الشعراء العبريون منذ العصور الوسطى حتى منتصف القرن العشرين . في هذه القصيدة يسمع الشاعر في احد أحلامه بلبلا يصدح في سكون الليل في فلسطين . أن الطائر يتغنى بالشعب الذي كان يقطن يوما ما هذه الارض ولكنه الان يجوب في أطراف الارض ومسالكها ، ويغمر الحزن قلب الشاعر ، بل ان البراعم والازهار والنخيل واشجار الزيتون تحزن هي الاخرى لشدو الطائر الحزين .

واحساس اليهودي بأنه منفصل عن الجوييم ، عدو لهم ، يتضح في قصيدة « فليكن هذا هو ثأرنا » : يقول الشاعر في القصيدة ان اضطهاد الجوييم لليهود سيملؤهم بالدنس ، وسيفقدهم طهارتهم ، اذ « أن دم اليهود سيتخلل كيانهم حتى يسمم أساس وجـــودهم ذاته» ، والقصيدة تجسيد لحقد مسموم لا يمكن لاي انسان سوي فهمه او معرفة كنهه . وهي تعبير عن احساس بالالم لا يزيد صاحبه انسانية ، بـــل يعمق من كرهه وحقده ، ولعل هذه الابيات توضح للقارىء بشكل ملموس تعميماتنا النقدية :

سيأتي اليوم (الذي تفقد فيه ايها المضطهد طهارتك) وتغرس حد سكينك في عنق أخيك ، ابن امك ،
كأنك تذبح خنزيرك المفضل
في عيد القيام ، في الفناء او في ميدان القرية ،
وستكون رنين انات موته مثل الموسيقى
أو المهرجان في اذنيك المتلهفتين .
يـــا يوم الثأر !
يوم ينتف ابنك شعر ذقنك التي علاها الشيب ،
ويرفع في وجهك قبضته الصلبة مهددا ،
وسيناديك من حنجرته الحيوانية :